مريدات في حضرة شيخهن

منال نحاس

تشترك الفتيات العشر اللواتي اتخذهن هذا الاستطلاع موضوعاً، وهن في سن تراوح بين السادسة عشرة والتاسعة والعشرين، في انتسابهن إلى جمعية دينية بيروتية، وفي حضورهن حلقاتها الدينية التي تعقد دورياً. والفتيات جميعهن سنيات لبنانيات، ومنبت أهلهن بيروتي، وهن بيروتيات في النشأة والسكن والدراسة والعمل، وتربين في بيوت يصلي فيها أهلهن ويصومون.

المستوى التعليمي للفتيات يراوح بين حيازة شهادة جامعية في الهندسة المعمارية، وإنهاء المرحلة الابتدائية في دورة لمحو الأمية. لكن التفاوت في المستوى التعليمي لا يغير شيئاً في الفتيات العشر في ما يتعلق بأخوّتهن على طريق الاهتداء إلى الله والاقتداء بشيخ الجمعية التي ينتسبن إليها، وفي انبهارهن شبه الصوفي به وبالمثال الذي يقدمه لهن. وقد اختارت جميع الفتيات مدارس غير مختلطة لتعلمهن. والمدارس هذه محافظة ودينية وأهلية التوجه، وتزيد من أحكام الرقابة المتشددة على تعارف الفتيان والفتيات. وبذلك ساعدت المدرسة في تحويل الفتيات إلى تربة صالحة لتنامي النزعة الجماعية لديهن على حساب النوازع الفردية. أما دخولهن إلى الجمعية فحصل في سن متوسطة بلغت ١٥ عاماً. وهذه السن هي التي تلي، عادة، الخروج من

«الورطة الأوديبية» للدخول في ورطة جديدة، هي ورطة تدبير الأنا بين الحال أو الواقع والانا الأعلى (القيم، التقاليد، الدين)، وفي ورطة البحث عن الذاتية الفردية ونوازعها وأهوائها وميولها.

١- صفات الشيخ

تتمرأى الفتيات العشر بالشيخ الذي يعكس لهن عن أنفسهن صوراً تتزاحم كلماتهن في التعبير عنها . فالشيخ، بحسبهن، تجتمع فيه صور التواضع والحنان والصفاء والنور والأخلاق والحب... وهذه كلها صفات من قاموس الصوفية. ويجمع الشيخ العلم والمعرفة من طرفيهما، الديني والدنيوي، ويحظى بالأتباع والمعجبين في كل البلدان العربية. «عند رؤيته أشعر بصفاء روحي، ولا أستطيع أن أصفه» تقول إحدى الفتيات فيما تقول أخرى إن «قلبه يتسع للكل، وهو قريب من القلب.»

ومن صفات الشيخ التي يرددها معظم الفتيات إنه «محبوب، وذو هيبة باهرة، ويكتنفه الغموض.» إحداهن قالت إنها في البدء «ترددت» في زيارته، لأنها قد لا تتحمل «قوة هيبته» التي تطل من وجهه «السموح». لكنها تابعت: «عندما رأيته من بعيد رق قلبي له، وعند الذكر ارتجفت عيناي وانفتح قلبي له، وعندما نظرت إليه رميت القلم والدفتر، ورحت أستمتع بحديثه.»

فتاة أخرى تقول إن «عطاءه لا يحده النور الذي يخرج منه. فهو يعلمنا الاهتمام بالقلب وعدم الانبهار بالمظاهر.» وفتاة ثالثة تقول إنه يعاملهن كما «يعامل الأهل أطفالهم الرضع، وهذا هو سبب تعلقنا به.» وصفة «اللطف» تترد دائماً على ألسنة الفتيات المريدات لشيخهن.

٢- حضوره في الفتيات

تعترف الفتيات العشر بأن لا كيان لهن من دون شيخهن. واحدة منهن تقول: «فيه تجدين كيانك ووجودك، ومن دونه لا تساوين شيئاً.» وهذا الانتساب الروحي إلى الشيخ، وانبعاثه في أرواح فتياته، لا تداخله المادة، لأن الشيخ هو مربي الروح والذي يقيم صلة الروح بالجسد. «في أوقات كثيرة أشعر أن الشيخ دائماً معي، إلى جانبي،» تقول فتاة من مريداته، وتتابع: «عندما أكون في ضيق أشعر أنه يقول لي ماذا عليّ أن أفعل، وأسمع صوته يرشدني ويدلني... وهو صاحب كشف، يعرف كل ما نفعل.» وتذهب فتاة أخرى أبعد من زميلتها في تحديد دور الشيخ في حياتها،

فتقول: «أشعر أنه يسكن دائماً في داخلي، في حضوره وغيابه، ويعرف ما يدور في عقلي وخلدي.»

والشيخ، يحسب كلمات مريداته، هو موّحدهن ومذوبهن في بوتقة واحدة. إنه جامعهن الروحي، ومقيم الصلة بين الواحدة منهن ونفسها، وبدونه لا ذوات لهن. وهو منتشلهن من ربقة الجسد المادي، مرتع الأنا وحدودها. كأن الشيخ يحول كل أنا من أنوات الفتيات إلى أنا أعلى ويوحدها في واحدة. والشيخ يقول لمريداته إنهن هو، وهو هنّ. وحين يسألهن في بداية الجلسات في حضرته: «من أنتن»، يجبنه في صوت واحد: «نحن أنت»، فيقول هو لهن: «ادخلوا يا أنا». كأنه في هذا كله يعتق فتياته من وجودهن الفردي المتميز، ومن صفاتهن المجتمعية والفردية، لبلوغ تجانس جمعي، حيث لا أنا، وحيث المثال هو الأنا الأعلى الكلية. وفي هذا يقيم الشيخ لحمة عضوية بين مريداته، هو محورها ورابطها وجامعها، بينما هن الفتيات يذبن في بعضهن، ويذبن فيه.

٣- الخلاص والهداية

«أنا لا أتعرف على الشباب ولا أخالطهن، لأن ذلك لا يليق بابنة الشيخ،» أي تلميذته ومريدته، تقول إحدى الفتيات المريدات. وتضيف مريدة أخرى قائلة: «عندما أحضر درساً من دروس شيخنا، أشعر أنني كنت فارغة وشحنت بطاقة غريبة، وأصبحت صلتي بنفسي قوية.» وهذه الطاقة التي يشحن بها الشيخ مريداته، تصرفهن عن «الميوعة» والاختلاط بالشبان، وعن «التفلت حيث لا حدود ولا مسافات.» واحدة منهن تقول: «الحمد لله الذي خلصني من جو رفاق برمانا، حيث الاختلاط بين الشبان والفتيات، وحيث لا مسافة في التعامل والعلاقات.»

والشيخ وارتياد حلقاته هما خلاص الفتيات من «حياة بلا هدف.» فواحدة من مريداته تقول: «صار لدي هدف لحياتي. وبحوث العلماء، علماء النفس والاجتماع، لن تنفع في الحد من الانتحار في المجتمعات الغربية.» أما تلميذات الشيخ، فيعرفن هدف حياتهن الذي يتجاوز «الأكل والشرب والملبس،» بحسبهن. والهدف هذا يمنحهن «السعادة» التي تتحصل من طريق الاتصال بالشيخ الذي يدعوهن إلى «القيام إلى الصلاة في أثناء الليل، والبكاء على النبي وحفظ القرآن.» ومن كانت من الفتيات «تحب الرقص وجو تخالط الشبان والفتيات،» كانت تشعر أنها على «ضلال» و«ضائعة» «ومخطئة»، فاهتدت بواسطة الشيخ الذي أدخل «الطمأنينة» إلى قلبها وعرّفها إلى نفسها.

وتجمع الفتيات العشر، حين يسألن عن الزواج، على صفة واحدة للزوج المرتقب والمأمول: «أن يكون ملتزماً عند سيدنا،» أي في حلقات الشيخ، رائدهن. لكن إحدى الفتيات تقول صراحة إنها لا تريد الزواج إلا «بشيخ مثل شيخنا،» وتتابع «لا أريد المهندس ولا الطبيب ولا المحامي، بل الشيخ، وليس أي شيخ، بل الذي يشبه سيدنا.» أما زميلة لهذه الفتاة، فتروي قائلة: «مرة سألني صهري إن كنت أضع شروطاً على عريس يبعثه لي الشيخ سيدنا، فقلت لصهري: لو بعث لي سيدنا سعداناً أسود، أقبل به، لأن ذوقه ذوقي، وهو لا يختار لي إلا الشخص المناسب.»

وهذه العينات من كلمات مريدات الشيخ وعباراتهن تفيد أن سيدهن يضطلع بشؤون حياتهن الدنيا. كأن الانصهار في بوتقة الحلقة التي محورها الشيخ وعالمه وكلماته، يدخل الفتيات في صلة أو رابطة جديدة عنوانها: «كلنا أخوات في حضرة سيدنا وفي حضرة ربنا.»

٤- النفس خارج الإرادة

تكاد لغة «العشق» تطغى على كلام الفتيات عن شيخهن. فواحدة منهن تستعمل، مثل فيروز في أغنية لها، «البحر وسعته» للدلالة عن حبها لشيخها. وابنة الشيخ أيضاً تحظى بمثل هذا «الغزل البحري.» ذلك أن «الحاجة» (ابنة الشيخ) تتولى أحياناً عقد الجلسات الأسبوعية للفتيات وترشدهن إلى نوع الملابس التي ينبغي عليهن ارتداءها. وهي تستمع إلى خلجات قلوبهن وهمومهن. والحاجة مثل والدها أيضاً: «بحر لا حدود له، ولا بداية ولا نهاية.» وهي بحر يشربن منه «الحب والطهر.» وتوجه بعض الفتيات الرسائل «الغزلية» إلى الحاجة وتبلغنها فيها أحاديث القلب والفؤاد.

إحدى الفتيات تقول: «الحاجة كانت وستكون أكثر من رفيقة وأخت وحبيبة.» ذلك أن الحاجة وتلميذتها تذوب الواحدة منهن في الأخرى. فهي تأخذ الفتاة مشاوير، وتوصلها إلى المنزل عند عودتها من الجامع. وتروي الفتاة أنها بعد ذهابهما معاً إلى المنارة، حيث تمشيتا وشربتا النسكافيه، أن الحاجة طلبت منها ألا تقول إنها معلمتها، لأن هذه التسمية، بحسب الفتاة، لا تدل على «الحبيب والحبيبة» وحيث تنتفي علاقة التلميذ والأستاذ. وتضيف الفتاة: «الحاجة تعاملني كحبيبة وتحترمني كابنة شيخ.» وأما الحب القائم بين الطرفين، فيكاد يكون حباً حقيقياً كالذي يقوم بين المتحابين: «فإذا زعلت مني الحاجة أشعر أني غريبة في الدنيا، بل ميتة،» تقول إحدى الفتيات. وعندما يرى أهل الفتاة ابنتهم «حزينة»، يعلمون أن الحاجة «زعلانه» منها، ثم لا

تلبث أن تضيف أن الحاجة «صديقة تأخذ عقلي.»

تخرج الفتيات المريدات أمر أنفسهن عن إرادتهن، وتكلفن أمر ضبط «شيطان النفس» إلى رقيب خارجي (الحاجة والشيخ). أي أن أنفس الفتيات المريدات تقوم خارج إرادتهن، ولا سلطان فردياً لهن عليها .

٥ – بحر الحب

«أنا أحب الشيخ كله على بعضه،» تقول إحدى الفتيات بلغة تستعمل عادة بين الفتيات للدلالة إلى حبهن كل ما في الشخص الذي يتحدثن عنه. تقول الفتاة ذلك وتتابع: «أنا مأخوذة بعطاء روحه،» كأنها تستدرك الجملة الأولى الدراجة وتموهها. وتقول صديقة أخرى لهذه الفتاة أن قلبها «يدق كثيراً ويخفق»، عندما ترى شيخها. «ولو قلت إنني أحبه على قدر سعة البحر، أكون قد وضعت حدوداً لحبي. لكن حب الشيخ لا حدود له في قلبي. وأنا أدعو إلى الله أن تستمر علاقتي به حتى ما بعد الموت، كي أجلس معه في الجنة»، بهذه العبارات تحاول الفتاة نفسها أن تشرح نوع حبها للشيخ.

غير أن إحدى الفتيات الأخريات تعبر عن حبها للشيخ بصور الحب الأمومي، فتقلب شيخها من المذكر إلى المؤنث، فتقول: «الشيخ أمي الروحية التي تسمو بي إلى الروح وتصعد بي إلى أعلى، ومن دونه حياتي هباء، ومقتصرة على العمل والدراسة والنوم، أي خالية من العاطفة والحب». وعندما تسمع إحدى الفتيات كلام شيخها «تنهمر من عينيها الدموع» وجداً. وإذا كان من طبيعة الوجد أنه يتشبث بالنفس أثناء جفاء الحبيب وغيابه، فإن هذه الفتاة المريدة يبلغها الوجد في حضرة الشيخ، ويصعب عليها أن تصدق أن «كلامه كلام إنسان.»

وحول رابطة الحب الجمعي الذي يقوم بين الفتيات، وبينهن وبين شيخهن، تقول واحدة من مريداته: «كلنا متساويات في حضرة الشيخ، ما دمنا نعيش كلنا من نهر حبه». كأن غياب الأنا الفردية لدى الفتيات يحوّلهن جسماً واحداً متصلاً. فالتوحد والاختلاط والتجانس والتواصل التام يمنع الاختلاف الذي يفرّق الواحدة منهن عن الأخرى ويميزها عنها. ذلك «أن كل اختلاف هو بداية، وكل بداية هي وجود وكون،» على ما يذكر النفري، أحد أعلام الصوفية في أدبنا القديم.

٦– الوجد الصوفي:

إن وجد مريدات الشيخ الصوفي هو وجد عاطفي يملأ أنفسهن ويصرفها عن

كل شيء، سوى حب الشيخ وطاعته والنهل من بحر حبه وحضوره أمام أبصارهن وفي قلوبهن. وهذه العاطفة من الوجد مادتها الفعلية الليبيدو الفرويدي. ويكفي أن يحضر الشيخ مرة واحدة أو أكثر أمام أبصار فتياته المريدات، حتى يصبن بالاختطاف الروحي الذي يغيّب الشخص عن نفسه وعن الآخرين، ليصبح طوع بنان الشيخ وكلماته. وهذه العلاقة بالشيخ وبابنته الحاجة، تعوض حرمان الفتيات الجنسي والعاطفي. فيتحول الحرمان هذا، عبر العلاقة الملحمية والخرافية بالشيخ، إلى امتلاء نوراني كامل.